قراءة النص الأدبي في ظل العملية الإبداعية الذاتية والغيرية

د/ حبيبة مسعودي
جامعة جيجل

من الطبيعي أن يحتاج النص الإبداعي إلى قراءة حداثية وذلك وفق مستوياته النظرية والتطبيقية ؛فإطاره المعرفي ينطوي على جملة من الكفاءات والآليات الوظيفية التي تقتضي من القارئ عدم إحداث انفصال بين مقروء الحاضر ومقروء الماضي،أو تنافر المقروء الإبداعي.

وفي ظل هذا السياق نعتقد بأن النص الإبداعي ببنيته التركيبية الدلالية ليس منتهيا ولكنه قابل للتكوين وإعادة التكوين وهذا لا يظهر إلا من خلال العملية القرائية وذلك وفق منظور حداثي متصل بالنظرية النقدية المعاصرة، التي تدعو غالبا إلى تفعيل حركة القارئ ،وما يؤديه من عمليات، وما يترتب عنها من إجراءات تجعل من قراءة النص الإبداعي جزءا غير منفصل عن فاعلية القراءة الأعم للدراسات الحديثة.

ومن هذا المنطلق سنحاول في ورقتنا البحثية هذه مناقشة الإشكالات التالية:

ماذا نعني بمصطلح العملية الإبداعية الإنتاجية؟ وكذا مصطلح العملية القرائية؟ ثم هل قراءة النص الإبداعي تكون انطلاقا من سياقاته الإبداعية ؟أم من تحديداته الفكرية؟أم انطلاقا من زمنه التاريخي؟ ومن ثم هل الحدث القرائي لهذا النص يستوجب مسايرة حصصات المستحدثة التي أفرزتها الدراسات النقدية المعاصرة من مثل: المثاقفة، وتحليل الخطاب، والنقد ألأجناسي...الخ؟أم أنه يستلزم إيجاد بديل للنظريات الأدبية التقليدية المتمركزة حول ثنائية النص والسياق؟أم أنها تتطلب استحضار النظريات الغربية بكل معالمها، وملازمتها تلازما معرفيا تطبيقيا؟؟؟

إشكالات كثيرة سنحاول مناقشة البعض منها في هذه الورقة البحثية التي سنعمل من خلالها الوقوف عند المصطلحات التالية:(العملية الإبداعية/الإنتاجية، العملية القرائية/التوليدية،النظرية الأدبية،النظرية النقدية المعاصرة) .

إن الإجابة عن هذه الإشكالات تحتم علينا تناول حيثيات مصطلحي النظرية والنظرية الأدبية وذلك حتى يستقيم عود الدراسة:

أولا– الفضاء المفهوماتي لمصطلحي النظرية/ النظرية الأدبية :

أ–مصطلح النظرية :

إذا ما أردنا الحديث عن قراءة النص الإبداعي بين الإنتاجية الذاتية والرافد الغربي يجدر بنا الوقوف عند مصطلح النظرية؛وذلك قصد محاولة تقديم دراسة منهجية تحمل نسيجا فكريا وفنيا، وتوحي في الوقت ذاته بمدى الوعي بالثقافة والمعرفة الذاتية والغيرية ،ذات التيارات المتباينة والتفاعلات المؤثرة التي تشهدها الحركات الأدبية وما تعالجه من فكر وثقافة ،وتحليل للخطاب، وجنس أدبي، وشعرية إبداعية، وقراءة وتلقي للبنى النصية...وما إلى ذلك،وهنا يتبادر إلى ذهننا التساؤل التالي: هي النظرية؟ كيف يتم التعامل بها مع الأدب هل يكون ذلك انطلاقا من حدودها المفهوماتية أم من خلال المدارات البحثية للأدب ؟

وهذا التساؤل يدعو إلى التريث في الإجابة كون نظرية الأدب بوصفها<<دراسة منهجية تحمل أغراضها العلمية في حقيقتين:الأولى :غائيتها في طرحها كمشروع نظري في **الأدب والنقد وعلم الجمال**،أما الثانية :فهي ما تحمله من جوهرها كوسيلة تطمح إليه أن تكون قد ملأت حيزا كان شاغرا في دراستنا الأكاديمية والبحث العلمي>>[1] .

ومن هذا التحديد الوارد في هذا النص تتضح أمامنا ما يمكن الاصطلاح عليه بالمرتكزات الكبرى الخاصة بالنظرية والمتمثلة في الأدبوالنقد وعلم الجمال وما لها من سياقات مختلفة وهذا ما سنبينه في الجدول التالي:

الأدب	النقد	علم الجمال
طبيعة الأدب ووظيفته تحليل الواقع الخارجي في الأدب	علم النفس، والاجتماع، الفكر والفلسفة	الحديث عن الصور الإبداعية بكل جزئياتها
مدى انعكاس الواقع الخارجي في تحليل الواقع الداخلي	بناء اللغة والأسلوب والتحليل	جمالية تكوين البنى النصية
تداخل الأدب بسائر الفنون المتباينة	المفاهيم الهامة والرؤى القرائية في العملية التشكيلية وكذا الممارسة النقدية للبنى النصية	إشكالية العملية الإبداعية(الكتابة)وفق المنظور الاستيطيقي
الأجناس الأدبية ومظاهر التداخل	الأجناس الأدبية والممارسة النقدية	الأجناس الأدبية في صياغتها الفنية

الرمزي فيها		
الرؤى و التصورات المكونة للمنجزات الذهنية	المفاهيم المتداخلة في الحقل النقدي والنقد الجمالي من مثل مفهوم الإيقاع، نظرية العروض الشعري...الخ.	الأسلوب والأسلوبية وغير ذلك من مواقع عاكسة للجمال في النص الأدبي

ذا نشير إلى أن نظرية الأدب تمثل<<مجموعة مطلقة من الكتابات حول كل ما سطعت عليه الشمس، ابتداء من أكثر المشاكل التقنية للفلسفة الأكاديمية ووصولا إلى الطرق المتغيرة التي تحدث وفكر بها الناس>>[2]؛فهي إذن غير مستقلة ولا منفصلة عن فروع المعرفة ونها تشتمل على حقائق متشعبة تمس العديد من الحقول المعرفية ،ذات حيوية وفاعلية لا ها إلا في غضون علاقاتها بتلك الحقول ،من مثل <<علم الإنسان (الأنتروبولوجي) ،الفن، التاريخ، الدراسات السينمائية، دراسات الجنس(من حيث التذكير والتأنيث في اللغة)، علم اللغة، الفلسفة، النظرية السياسية، علم التحليل النفسي، الدراسات العلمية، التاريخ الاجتماعي والفكري، وعلم الاجتماع، وترتبط الأعمال التي نحن بصددها ارتباطا وثيقا بالمناقشات في هذه المجالات>>[3].

فبالتواصل بين هذه الحقول تتبدى خصوصية "النظرية" ي تتداخل في سياقاتها الحقائق المعرفية، مشكلة بذلك كيانها الفكري ووجودها الفعال.

وفي سياق هذا التصور نقول:إن "النظرية" تتجاوز حدود الحقل الواحد؛ حيث تجتمع فيها شبكة من <<الخصوصيات الثقافية بأقدار متفاوتة حسب القوة والنشاط والإدماج في لمجتمع العلمي العالمي>>[4]؛فتطابقها يأخذ في الحسبان كل الحيثيات الضرورية لتأسيسها وفق أنظمة هامة ترسو في فكر نظامها الذي شرع لها هيكلا معرفيا ، مبنيا على طرق دلالية معينة ،يبرز على قدر كبير من الأهمية في مجال التعامل مع الحقائق المعرفية.

ب- مصطلح النظرية الأدبية:

من الجدير بالذكر أن النظرية لم تكن وليدة الصدفة ولا العدم ؛وإنما هي امتداد لما كان موجود في السابق، فلا نظرية جديدة من دون مقدمات أو نظريات سالفة يحدد لنا الاصطلاح مفهومها الذي يتم التواضع عليه من قبل مستخدميه ،كما يتم التوافق على إدراجه في التداول المعرفي الذي يخط حدوده المحورية التي تجعل منه أداة فاعلة للتجديد

،ويكون ذلك وفق آلية فكرية تعمل على إخراج النظرية للوجود، وبخاصة في ممارستها وظيفتها،وبهذا المعنى نجد مصطلح (نظرية الأدب) المركب من مصطلحي (النظرية/ الأدب) حديث في صياغة البناء؛كون (نظرية الأدب) ما هي إلا<<شكل هندسي حديث التكوين؛لأن التحديد في مفاهيم الأدب، وحتى الأدب كمفردة أو أنواع ومذاهب ونظريات لم يعرفها النقاد قبل القرن الثامن عشر، وتاريخ هذا الزمن ليس بعيدا عنا،بمعنى أنه قد يشكل بدء صياغة الحداثة في دخول المفهوم كالنظرية الأدبية أو نظرية الأدب أو في نظرية الأدب أو لسواهما من المفردات التي جاءت لتحمل مدلولها في تحديد دقيق لحجمها وتاريخها وحضارة إنسانية ومميزاته>>[5].

فما يمكن الوقوف عنده هنا هو مدى فاعلية نظرية الأدب بوصفها نظرية متصلة بالظواهر الأدبية، وذلك وفق مسارات مرجعية متداخلة تستهدف الوصول إلى غاية محددة ،مرشحة لعطاءات مختلفة،ولا سيما إذا تم التسليم بأن<<النظرية الأدبية غير موجودة حقا كفرع مستقل من فروع المعرفة>>[6]ومن هذا التوجه نتساءل: ما طبيعة العلاقة القائمة بين النظرية والأدب؟،وبين نظرية الأدب والأدب؟.

إنهما سؤالان محوريان لا يمكننا تجاهلهما كونهما يعيناننا في استكشاف صور جديدة تنطلق من النص لتصل إلى النص، وعلى ذلك تتأسس وظيفة العناصر المشكلة للمنجزات الذهنية من مثل: الدوال والمدلولات،السياقات النصية، التناول الجمالي(الأسلوب)، الجزئيات النصية ذات الخصائص الدلالية والفنية والوظيفية،العاكسة لمؤسسة نصية تجسد التكامل والتواصل بين النظرية والأدب ،وبين نظرية الأدب والأدب وهذا في ضوء التحولات المعرفية التي تلاحق كلا من الثقافة والمعرفة،ومدى انفتاحهما على فضاءات وتيارات فكرية تستوعب التطلعات المعرفية والممارسات الواعية داخل مجال الثقافة والأدب؛فهي <<شديدة الارتباط اسمة التي شهدتها مناهج التحليل وممارسات النقد الأدبي على السواء>>[7]؛بحيث تعمل تلك المناهج التحليلية والممارسات النقدية على الاشتغال بالظواهر الأدبية مفرزة للعديد من الخصائص الخطابية والقيم الجمالية ،فالمبدع بوصفه منتجا للمنجزات الذهنية يرى بأن ما أبدعه ناتج من قدرته التفكيرية و طاقته الإبداعية التي يمكن عدها أعلى مدارج المتعة الروحية (والجمالية) التي يمارسها عن طريق الاعتماد على

خصوصيات الفنون الأخرى الجامعة بين مناهج البناء التشكيلي والآليات الجمالية فقدر<<التداخل وانتقال الخبرة في مناهج البناء التشكيلي واسع،ولكن الأدوات الفنية ستظل متمايزة ؛إذ لكل فن أداته النوعية ذات السياقات والطاقات المحددة وذات إمكانات التطور الخاصة>>[8].

وما نريد إبرازه في خضم هذا النص أن المنجزات الذهنية لها خصوصية في أبنيتها ة، وكذا أنساقها الجمالية، وبطبيعة الحال، فإنها لا تستغني عن النظريات الأدبية المتداخلة والتي تجمع بين الجمال والتشكيل والإرسال والتلقي والجنس الأدبي...وما إلى ذلك، علاوة على استجابتها لمقتضيات العصر وتطوراته.

وإذا ما انطلقنا من هذا التوجه الفكري معتمدين على التصورات النقدية أو المنهجية محاولين إظهار المبدأ الحواري الماثل بين البنى النصية ومختلف المناهج نجد بأن النظرية الأدبية تذهب إلى أن الأدب لا يأخذ في هيكله وبنائه وفحواه صورة واحدة وإنما في محدداته الابستيمولوجية التي يظهر واقعها فيالصور الأربعة التالية:

أ – **صورة الواقع الذاتي** :وتتجلى فيهاقدرة المبدع الذاتية على العملية الإبداعية للتوجهات الفكرية ،وما يرسمه من معالم المستويات الثقافية مع إبراز مظاهر حضور تلك الذات المبدعة فيما أنجزته من منجزات ذهنية،دون تجاهل كيفيات ومناهج التحليل والقراءات النصية.

ب – **صورة الواقع النصي**:الذي يظهر في البنى النصية، كما تتكئ عليه المناهج المتباينة بوصفها آليات إجرائية تعين المهتم بالعملية التحليلية للنصوص على تواصله المباشر وغير المباشر بالمنجزات الذهنية وما لها من خصوصيات داخلية ،فضلا عن الاهتمام بميكانيزمات الحدث الإبداعي في حد ذاته والذي ينطوي على أنظمة متعددة منها ما يتصل بالنسيج العلاماتي من دوال ومدلولات وصور وأخيلة ...الخ.

ج –**صورة الواقع الخارجي**: به كل المناهج النقدية التي ترصد أشكال العلاقات المختلفة بين المنجزات الذهنية وما لها من اتصالات بالتوجهات الاجتماعية، والاستعمالات الإيديولوجية والعقائدية والأخلاقية والتاريخية...الخ.

د–**صورة الواقع الاستقبالي**: ويتصل هذا النمط من الواقع بالمستقبل للبنية النصية (القارئ) الذي يكون عنصرا مشاركا في العملية القرائية ،فتصبح هنا صورة الواقع الذاتي الخاصة بالمبدع

ة بهذا القارئ،كما تقتضي صورة الواقع النصي الغوص في أغوار النص والانتقال من البنية السطحية إلى البنية العميقة بغية استنطاق ذاك المنجز الذهني ،علاوة على الاستفادة من صورة الواقع الخارجي المميز للقارئ الذي يوظف من خلاله مرجعياته الفكرية وشحناته المعرفية وتوظيفه للنظريات النقدية في فتق مغالق النصوص.

و مما يتراءى لنا أن البنية النصية تتجسد في تمظهرات متباينة (قصة، مسرحية، رواية،...الخ)، تتماهى دلالتها المحورية مع إطارها العام الناظم لنسيجها الصياغي،والحامل لتصورات فكرية ومرجعيات دلالية ذات السياق الإنبنائي تقتضي من المتفاعل معها أن يعمل على إخراج النص من سكونيته إلى فاعليته ،محاولا بذلك تحقيق إيجابية العملية الإبداعية ضمن دينامية إنتاجية تستلزم الاعتماد على تنشيط العملية القرائية الواعية غير المنفصلة عن الفاعلية الإبداعية ،وقد يظهر لنا هذا من خلال ضرورة اسكتشاف أنماط جديدة تخص البناء التشكيلي للمنجزات الذهنية بوصفها نسقا يسعى إلى مسايرة الحقل الدلالي للنص.

ومن هنانعتقد أن المنجز الذهني (النص) يكتسب مشروعية وجوده انطلاقا من النسق والنظام عن طريق تحقيق التآلف بين عناصره التكوينية التركيبية ،وقبل الغوص في هذه المناحي من الدراسة وحتى يستقيم عودها نجد أنفسنا مضطرين للحديث عن العملية الإبداعية الإنتاجية للنص الأدبي من أين وإلى أين؟

ثانيا – العملية الإبداعية الإنتاجية للنص الأدبي من أين وإلى أين؟:

مراء فيه أن الذات المنتجة المبدعة للبنى النصية في أثناء تشكيلها لبنياتها وفق ت ومشتملات فردانية تضع في حسبانها نمط الآلية الذهنية المؤسسة لهذا البناء الفكري بدءا من تفاعلاته مع الممكنات الذهنية وصولا إلى تجسيد خيوط دلالية تنسج معمارية التشكيل الهندسي الذي يقتضي فضاء قرائيا ينطوي على رؤية عميقة غائرة في باطنية الحدث التفكيري العاكس لشبكة معرفية ذات سياق تكاثفي تجعل من الإبداع يمثل <<الإنتاج الجديد الأصيل الذي يقدم قيمة مضافة للمجتمع (...) هذا النتاج يتجلى بأشكال عديدة ومتنوعة، وفقا لوظيفة النشاط الإبداعي وطبيعته ومستواه في الأصالة والقيمة>>(9).

ويبرز لنا من خلال هذا القول أن العملية الإبداعية ما هي إلا ابتكار واستحداث شطة المتباينة التي يكون من شأنها إضافة قيم نموذجية متنوعة بحسب تركيبتها اللغوية

والدلالية ،وطبيعتها التجسيدية والممارساتية،وكذامستواها المنظوماتي والحواري ؛بحيث يكون<< ـع ونصه جزء من المجتمع ينطلق منه ليعود إليه، ويحقق به ومن خلاله إبداعه بصفة عامة>>[10]، وهذا يقودنا إلى القول بأن المنجز للعملية الإبداعية (المبدع) ينتقي مادة موضوعه من المحيط الخارجي (الواقع) ،معتمدا في ذلك على حيثيات ذاك المحيط دون إغفال الرؤية الذاتية التي تم تكوينها وفق المسار الحياتي والمعرفي ،مستجيبا في عمله هذا لمستويات الحدث التشكيلي بدءا من الفعل الانتقائي لمعالم الموضوع النصي ، متجاوزا لما هو موجود ،وصولا إلى التشكيل التنويري للعناصر المكونة له، بحيث لا يمكن فصل عنصر عن الآخر كونها تتداخل في مكنوناتها ووظائفها التي تجعل من العملية الإبداعية <<تأمل ونقد وتجاوز واستباق إلى بناء عالم تصوري وجداني معرفي جديد مختلف ،فيه سمة الأصالة والتفرد بل والشذوذ أحيانا >>[11].

وفي ظل هذا المنحى يتبين لنا أن الإبداع يشتمل على نوع من الإنتاج العاكس لطابع جديد من الوجود،فهو يستند على شبكة من الميكانيزمات الجوهرية التي يقوم عليها الموضوع العام الذي يبتغيه المنجز له التركيز عليها وإعادة بنائها في ضوء ما تقتضيه من مؤشرات فاعلة تساعد الذات المبدعة على تقديم استجابات فكرية تنبع من إمكانات توظيفية تكون مصورة لجزئيات معرفية وانفعالات متضافرة فيما بينها تدل على وضع ذهني فرداني يجسد ما يعرف بالممارسة الإبداعية الذاتية التي تتكئ على <<الاعتماد على الخصوصية الذاتية لتقديم مضامين ومسالك جديدة غير منقولة لمواجهة تحديات إشكالية للتحديث ومواجهة العصر ،ومواكبة الصراعات ولطرح تساؤلات جديدة بما يصاحبها-أحيانا- من إجابات جزئية،وريادية>>[12].

وحسبنا أن نلاحظ أن دلالة العملية الإبداعية ترتكز على معلم أساسي في غاية الأهمية يتمثل في الأنا المبدعة المسهمة في تحصيل المعرفة بالتعبير عن الدلالة المنشودة المتمحورة حول تصور فكري يتم في ضوء نطاقهالتعرف على الخصوصية الخاصة بكل من الذات المبدعة وكذا خصوصية البناء الفني للبنية النصية فتتكون بينهما علاقة طبيعية انصهارية بين المبدع/ المنتج والعمل الإنتاجي / النص الأدبي.

وبناء على هذا التوجه نشير إلى أن العملية الإبداعية توحي<<بكل ما يتعلق بإنتاج العمل الفني ،من بواعث ومهيئات،وعملية خلق،وتوليد،وعلاقة بالنص ،وما إلى ذلك>>[13]،وفي هذا الصدد تبرز أهمية الحدث الإبداعي الإنتاجي الذي يقتضي من صاحبه الاتصاف <<بصفات عقلية وانفعالية لعل من أهمها : الميل إلى المخاطرة واقتحام المجهول وتحمل تناقضات نفسه والثقة في نفسه وفي قدراته، وتقبله لذاته وتقديره لها بفاعلية توكيدية واتزان >>[14]،ومن ثمة يشترط فيه – المبدع- أن يعي نسق العلاقات المترتبة عن العملية في حد ذاتها ،ومن هنا يتبدى لنا أن هذا المنتج/ المبدع في بنائه للبنية النصية يتوجب عليه ما يلي:

- ✓ الرغبة في اقتحام غمار المواضيع المختلفة والولوج إلى عوالمها المجهولة.
- ✓ امتلاك الثقة في النفس وفي القدرة على القيام بالحدث الإبداعي دون خوف ولا تردد.
- ✓ الإحاطة بموضوع النص الإبداعي وملابساته.
- ✓ التفطن إلى جزئيات وحيثيات مضامين النص.
- ✓ امتلاك ناصية الإبداع و إمكانات الاحتواء المعرفي للمادة الإبداعية.
- ✓ الوعي بالآليات الفكرية من خلق وتوليد كونها تعطي للنص الأدبي قيمته الثقافية والجمالية، وذلك وفق نسق ثقافي يتميز بسياقاته النصية ومستوياته التعبيرية.

ونحن حين نذكر هذه الصفات التي لا بد من توفرها في شخص المشتغل على الحدث الإبداعي لا نغفل الإطار الذي ينظم الحدث ككل في ظل أنظمة وسياقات تؤثر فيه وتتأثر به على حد سواء،مقاربة بذلك مواطن الجمال في النص الأدبي الذي يمكن إخضاعه لرؤية نقدية ذات واقع ممارساتي منهجي فاعل ، يسهم مساهمة فعالة في تحليل وقراءة ما يتضمنه النص من معارف مختلفة ،مع تبيين للعمليات المعقدة التي أنجزها العقل.

وفي ظل هذا المنحى يكون قمين بنا الحديث عن فعل القراءة والمفاعلة للنص الأدبي الماثل بين الحدث الإنتاجي الذاتي والرافد الغربي :

ثالثا–شعرية الفعل القرائي للنص الأدبي في ظل العملية الإنتاجية الذاتية والرافد الغيري:

لا يمكن تصور نظرية دون أخرى ، كما لا يمكن تصور إبداع دون قراءة ،وهذه المعادلة تجعلنا نشير إلى أن العملية القرائية للنص الإبداعي تستند على<<مجموعة من

عمليات التحليل وتطبيقها على نص معين، وتقدم هذه القراءة نفسها كإنتاج مقابل للوصف أو الشرح الكلاسيكي للنص الأدبي ،إنها قراءة لاشتغال النص ؛أي للعملية التي تؤسسه كنص من النصوص،أو هي قراءة لإنتاجيته ،وتتسم بكونها قراءة غير منتهية ما دامت تظل مفتوحة أبدا علة قراءات أخرى معتمدة على تقنيات تحليليةأخرى >>(15).

وهكذا يظهر لنا بأن العملية الاستقبالية /القرائية /الحوارية/ الانفعالية/ التفاعلية ...للبنية النصية عملية جد مركزة ؛فهي تتكئ على جملة من الآليات منها:

1) **حاسة البصر**: نشاط بصري يتم من خلاله تتبع الرموز الخطية والحروف المرصوصة، والكلماتالمتآلفة، والوحدات اللغوية المتجاورة...وما إلى ذلك.

2) **حاسة الإدراك الذهني**:ترتبط بعمليات الإدراك للمثيرات البصرية(حرف، كلمة، جملة، سياق...الخ)، ونقلها من إطارها المقروء إلى الإطار الذهني.

3) **حاسة الإدراك الذهني الاستجابي/ الانعكاسي**: والذي تظهر فيه العملية القرائية بوصفها ظاهرة مركبة من شبكة من المستويات الأول فالأول حتى تتم عملية الفهم للمقروء وفض تشابكاته الدلالية.

وفي هذا الإطار لا تكون هذه الآليات مجرد وسائل فحسب؛ وإنما هي جزء من الحدث القرائي في حد ذاته؛ إذ يعكس صورا فكرية في غاية الأهمية ؛كونها تتصل بالمقومات الذاتية والغيرية :المعرفية منها والثقافية، المشكلة للوحدة العملية الإبداعية المقربة للمعارف في إطار تفعيل حركة التواصل والتبادل والتفاعل في الثقافات .

ومما يظهر لنا أن هذا الإطار يتجسد عن طريق الواقع الاحتكاكي الماثل بين "الذات/ الأنا " و" ألهو / الغير "، وبخاصة إذا تم الإقرار بأن الفرد المبدع بطبعه كائن موجود متفاعل مع الآخر ؛ومعنى ذلك أنه يتميز بوعي ذاتي متميز في بنيته الفكرية التي يمد حيزها التواصلي مع الوعي بالآخر في ضوء إمكاناته اللغوية والثقافية والحضارية.

وعلى هذا الأساس نرى بأن الوجود الفعال للمبدع / المنتج لا يتأكد – في رأينا– إلا في غضون تفاعله وتحاوره مع الآخر / ألهو، الأمر الذي يدفعنا بوصفنا منتجين إلى إدراك

معالم الهوية الثقافية الذاتية ، مع ضرورة الاستفادة من الكيان الايجابي للثقافة الغيرية / الرافد الغربي.

م به أن الذات العربية في عمليتها الإبداعية لها مقوماتها الثقافية ،ومفاهيمها الخاصة إلا أن هذا لا يعني الانكماش على حيثيات الخصوصية الذاتية وإنما يتوجب الاعتماد على العلاقات التبادلية ، وذلك عبر تفعيل الحدث التواصلي بين الذات/ الغرب ،و الآخر / الرافد الغربي.

ويبقى هذا الحدث التواصلي مفتاحا من مفاتيح التعرف على العلاقات الفكرية والمكاشفات المعرفية التي يمكن لها تقديم منهج<<لتوسيع نظرة الإنسان في تناوله للأعمال الأدبية المعينة ،إنه طريقة للنظر إلى ما وراء الأطر الضيقة للحدود القومية من أجل إدراك الاتجاهات والحركات في الثقافات القومية العديدة ومن أجل إدراك العلاقات بين الأدب والمجالات الأخرى للنشاط الإنساني (...) ودراسة أية ظاهرة أدبية من وجهة نظر أكثر من أدب واحد، أو متصلة بعلم آخر أو أكثر>>[16] .

فالانفتاح على الآخر والتعرف على ثقافته ومعارفه قصد توسيع نطاق التبادل المعرفي شريطة الحفاظ على البناء والتكوين الذاتي، يؤدي إلى تفعيل التحاور بين الطرفين " الذاتية / العرب" ، و" الغيرية / الغرب " ،وبخاصة إذا تم التسليم بأن الكائن البشري بطبعه قائم على مبدأ التجديد، وهذا الأخير مرتبط بمدى احتكاكه مع الأخر والابتعاد عن الانغلاق على الذات أو الانعزال المعرفي ؛كون العمل المشترك يُفَعّلُ النشاط الإنتاجي وما ينطوي عليه من آليات مادية وأدوات ذهنية، تنعكس في المعطيات الموقفية التي ينتجها المبدع ،تحتكم إلى علاقة الحوار الماثلة في الاتصال المعرفي / الثقافي الذي يقتضي التبادل في مجالات الفكر والإبداع ،الفاعلة والمتفاعلة ،المؤثرة والمتأثرة.

وفي ظل هذا المنحى نشير إلى أن قراءة النص الانتاجي بين المعرفة الذاتية والرافد الغربي لا تنفصل عن تنشيط المبدأ التفاعلي القائم بين الذات والآخر، فهو المعلم الأساسي إز إستراتيجية التقارب والاحتكاك بين المعارف الموجودة عند الطرفين، وبهذا التصور يظهر لنا بأن قراءة فكر الآخر والاطلاع على مستجداته والاستفادة منها يمكن أن يعطي نوعا من الإبداع المعتمد على مبادئ الانفتاح المتطلبة لحضور المفهومات

التحديدية،والمحمولات الدلالية الخاصة بالرؤية العقلانية ذات القابلية للتفاعل مع الرافد المعرفي الغيري / الغربي،وذلك رغبة في بناء رؤية معرفية مستقبلية وفق أسس معرفية جديدة ومتطورة؛ لأن تطلع الذات إلى فكر الأخر ،والتعرف على رصيده الثقافي والمعرفي والحضاري يُعد – في نظرنا– استجابة لمتطلبات الحركة التطورية ،وتوسيع مجالات الإبداع،وبناء الصرح العام للثقافة التي تستل <<غناها وأهميتها من قابليتها لتوسيع مجالات إبداعها وقدرتها على الانفتاح على خصائص الحضارات ،ومدى تفاعلها مع الثقافات>>[17].

ومن الطبيعي أن يكون الأخذ والعطاء للسياق الثقافي والمعرفي بين الذات والآخر قائما على ميكانيزمات محورية تجعل من المبدأ ألتحاوري بين الثقافة المعرفية الذاتية والثقافة المعرفية الغيرية وسيلة من وسائل التلاقح والاتصال المعرفي المسهم مساهمة فعالة في الربط بين قطبين هامين ،وذلك من منظور ثنائية التأثير والتأثر ، مع قابلية الاستيعاب والاستجابة لمتطلبات التطور اللغوي والفكري الذاتي والغيري.

وقد لا نجانب الصواب إذا ما قلنا بأن فاعلية قراءة النص الإبداعي في ظل ثنائية الأنا والآخر تتم عبر إستراتيجيةممارسة التفاعل الثقافي ، ومدى دينامية الحدث التبادلي للنظريات الفكرية والنقدية ،وذلك قصد تحديث المعارف ،وبلوغ تلمس الحقائق المتعددة ،والانعكاسات الدلالية المتباينة التي يتيحها حدث التلاقح والاتصال الذي تحكمه روابط التأثير والتأثر.

وفي ضوء هذا التوجه الفكري يتضح لنا بأن الفاعلية المتبادلة بين الذات والآخر يتم استنباطها من خلال ثنائية الأخذ والعطاء التي تعكس لنا الممارسة الثقافية عندكل منهما.

ومما يبدو لنا هنا أنه من الصعب أن ينشأ أي منجز ذهني ذاتي بمعزل عن مبدأ التحاور مع المنجزات الذهنية الغيرية ؛كون الانغلاق على الذات–في تصورنا– يقلص من التعدد المعرفي ،ويحد من استكشاف مستجدات المعارف، كما يحيل على الجمود الفكري.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العملية الإبداعية الإنتاجية ذات راهن معرفي متصل بما تشهد المعرفة من تشابك وتشاكل بين الأجناس المعرفية المتنوعة والمتأثرة بالرافد الغربي ، مما يضفي لعيها لمسة إبداعية تظهر عملية الاحتكاك بالآخر ، ومن ثم محاولة الذات العربية تركيب النسق الثقافي العربي بكيفية ملفتة للانتباه؛إذ أصبح الذهن العربي يستلهم بعض رؤاه

من المؤثرات الغربية ،وهذا "أدونيس" يقول في كتابه(سياسة الشعر): <<إني من جيل نشأ في مناخ ثقافي كان الغرب الأوروبي يبدو فيه بالنسبة إلى العرب كأنه الأب>>[16].

والحالة هذه تجعلنا نقول: إن مد جسور التواصل بين الذات والرافد الغربي تجعل من الأولى- الذات-منفتحة على شبكة من الأنساق والدلالات المتنوعة التي تثري بها مسوغاتها الثقافية والمعرفية،وذلك وفق معالم نسقية ثقافية متوارثة ، تحتك في الوقت ذاته بالرافد الغيري الذي يحمل سياقا ثقافيا خاصا ، ومن ثم تكون العلاقة بينهما علاقة اتصال واحتكاك وتبادل، يمكن أن تتأسس في ضوئها العملية الإبداعية، وهذا من خلال التأثر الإدراكي بإنتاج الآخر ،الأمر الذي – في رأينا- أحدث تطورا بَيّنًا في الواقع المعرفي العربي.

وفي ضوء هذا التصور نذهب إلى أن إبداع وقراءة المنجز الذهني العربي يقتضي من المشتغل عليه الوعي بعوالم الممكنات النصية الماثلة بين الحدث الإبداعي والقرائي الذاتي/ العربي والرافد الغيري / الغربي،وذلك بوصفها أبنية ثقافية ذات إشارات اتصالية بين عوالم ذاتية وعوالم غربية ،تأخذ معناها من تفعيل الأنظمة المعرفية والسياقات الثقافية للبنى النصية،ولاسيما إذا سلمنا بأن العملية الإبداعية- الإبداع/ الإنتاج- ما هي إلا<<بوابة كبرى للشراكة الحضارية (...) ومع أن كلمة الشراكة ذات ظلال سلبية في تراث خطابنا القومي العربي فإنها تشير إلى حقيقة التفاعل الايجابي بين الثقافات المعاصرة من ناحية،والتوالد التاريخي بين الأنساق الحضارية من ناحية أخرى،فهناكحقيقة راسخة في الضمير الإنساني تعزز التأملات التاريخية للإنجازات والتبادل النشط للأدوار وهي أن الحضارات الكبرى لا تموت في مكان حتى تبعث بشكل مغاير في مكان وزمان آخرين>>[19].

ومن هذا المنطلق يتأسس الحدث الإبداعي /الإنتاجي مقاربا التداول والدخول الفعال معترك الشراكة الحضارية فصد إنتاج المعارف المتشابكة والاستفادة من ثقافاتها المغايرة ، شريطة الحفاظ على الروح الإبداعية العربية وعدم تركها تنغمس في متاهات غربية، أو ذوبانها في كينونة الآخر بكل تمفصلاتها،فمسألة الأخذ والعطاء/ التأثير والتأثر بين " الذاتية/لأنا" و " الغيرية/ ألهو " تتعلق بوظيفة تأسيسية بنموذج/ مشروع إبداعي يشتمل على ثقافات عديدة ينتجها كل من "الأنا / الذات العربية " و"الآخر/ الرافد الغربي " فـ<<"الأنا" ليست وحدة إلا ظاهريا،وإنهاعمقيا تمزق وانشقاق، "الآخر" نفسه "مقيم" (سلبيا أو إيجابيا) في قراءة "الأنا"

، لهذا لا فصل دون وصل: لا "أنا" دون "الآخر"، الهوية، الحية، البصرة(...) لا تأتي الهوية من " الداخل " وحده، ولا من "الخارج" وحده، إنما في هذا التفاعل المتحرك أبدا >>[20].

وبناء على هذا السياق يمكن التنبه إلى أن العملية الإبداعية /الإنتاجية تشتمل في أغلب الأحيان على جواهر مدلولية ،ترتكز على مركزية الوجود الذاتي المنفعل مع الوجود الغيري ،وذلك في سياق إنتاجي يكفل دينامية الدائرة الحضارية المتمحورة حول الأقطاب الثلاثة :الإبداع ، الثقافة، الهوية، ولعل الترسيمة التالية توضح ذلك:

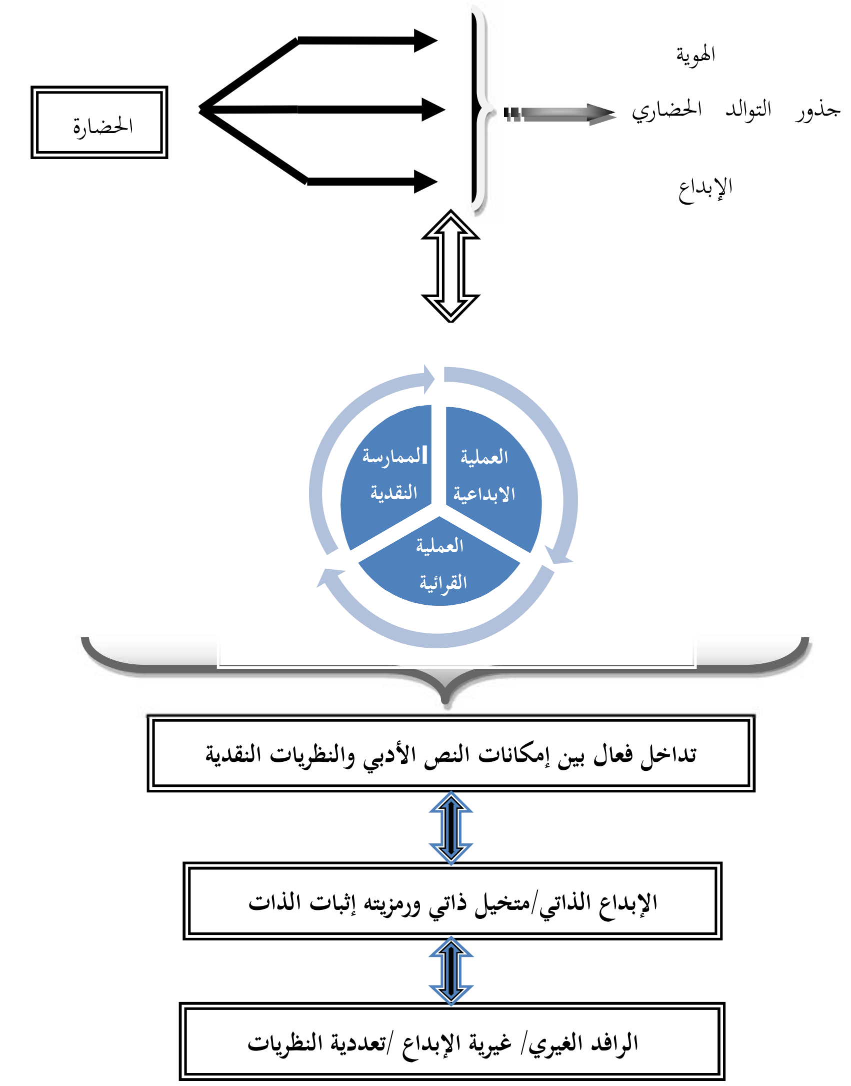

فتلك المحاور الثلاثة (الهوية، الثقافة، الإبداع) تشكل بتضافرها مع بعضا البعض مركبا ذاتيا عمليا وفاعلا، إنها – في تصورنا- تجسد حقلا أداتيا يتمحور حول المركز(الحضارة)، وذلك وفق علاقات متبادلة ومتداخلة عبر نظام يتيح وجود المركب الحضاري ككل، كما يحقق بناء الكيان الوجودي للذوات ، هذا الوجود الذي يخضع لقانونالتفاعل والتداخل.

الهوامش

1. يوسف شفيق يوسف البقاعي: نظرية الأدب ، منشورات جامعة السابع من إبريل ،الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ط1، 1425م، ص:10.
2. ج.كوللر: ما النظرية الأدبية؟، ترجمة هدى الكيلاني، اتحاد كتاب العرب بدمشق للنشر والتوزيع، دمشق ، سورية ، سلسلة الترجمة، ع 03، 2009م،ص:10.
3. المرجع نفسه، ص: 10.
4. سيد البحراوي:في نظرية الأدب،محتوى الشكل، مساهمة عربية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(د ط)، 2008م، ص: 06.
5. يوسف شفيق يوسف البقاعي: نظرية الأدب ،ص:19.
6. ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: باسل المسالمة دار التكوين للنشر والتوزيع ،دمشق سورية،ط 1، 2010م ، ص: 07.
7. حميد لحمداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر: مناهج ونظريات ومواقف،مطبعة أنفو –برانت ،القادسية ،الليدو، فاس، المغرب، ط 02، ص: 03.
8. عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، دار العودة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط 03، 1983م، ص: 82.
9. صلاح فضل: الإبداع شراكة حضارية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، جمهورية مصر العربية،2008م، (دط)، ص:05.
10. سيد البحراوي: في نظرية الآداب محتوى الشكل: مساهمة عربية، ص:93.
11. محمد عبد المنعم خفاجي: عبقرية الإبداع الأدبي، أسبابه وظواهره، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية، القاهرة، ط1 ، 2002م، ص:09.

12. أنور عبد الملك :الإبداع والمشروع الحضاري ،مجلة فصول الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، جمهورية مصر العربية، في عددها الخاص (بالحداثة في اللغة والأدب)، العدد الثالث،إبريل /مايو/ يونيه 1984م، ص:115.

13. مجدي أحمد توفيق: مفهوم الإبداع الفني في النقد العربي القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د ط)، 2007م، ص: 13.

14. محمد إبراهيم عيد: الهوية والقلق والإبداع، دار القاهرة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 2002م، ص:261.

15. محمد حمود:تدريس الأدب، إستراتيجية القراءة والإقراء ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، (د ط) ، 1993م، ص:18.

16. عبد الحكيم حسان: الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسي والأمريكي، مجلة فصول الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1983 م، مج 03، ع03، ص:16.

17. ثريا إقبال: جمة والثقافة ضمن كتاب الترجمة وتفاعل الثقافات، حلقة بحثية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2004م، ص: 288.

18. أدونيس: سياسة الشعر، دار الآداب للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، لبنان، ط 1، 1985م، ص:63، 64.

19. صلاح فضل: الإبداع شراكة حضارية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، جمهورية مصر العربية، (د ط)، 2008م، ص:06، 07.

20. أدونيس: الثابت والمتحول،بحث في الإبداع والإتباع عند العرب،دار الساقي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 08، 2002م، ص: 27.